المنهج التاريخي عند الدكتور علي الوردي

المدرس المساعد

أحمد جعفر صادق الأنصاري

جامعة الكوفة / كلية الآداب

المنهج التاريخي عند الدكتور علي الوردي

المدرس المساعد
أحمد جعفر صادق الأنصاري
جامعة الكوفة / كلية الآداب

المقدمة:

هذه الدراسة هي في حقيقتها محاولة لبيان أمور كان من الواجب بيانها لكل من يهتم بعلم الاجتماع سواء كان طالبا أو متخصصا أو قارئا شغوفا ومحبا للفكر الاجتماعي ولاسيما العراقي منه إذ يمثل الدكتور علي الوردي واحداً من أهم رواد الفكر الاجتماعي عربيا وعراقيا، وبطبيعة الحال ونتيجة عطائه الواسع وأرائه السباقة ونجاحه المنقطع النظير كان عالم الاجتماع الأكثر إثارة للجدل حول فكره ومنهجه، في حياته وبعد وفاته والى يومنا هذا حيث لا تزال تدور حوله الكثير من البحوث العلمية والكثير من المقالات والبرامج الحوارية في الفضائيات أو في أساليب إعلامية أخرى، إلا انه ومع الأسف كانت في الغالب تطلق أحكام يمكن إن نسميها ظالمة للفكر الاجتماعي للدكتور الوردي وكان ذلك نابعا من إن اغلب المتحدثين في تلك البرامج والمقالات وغيرها من أساليب الدعاية والإعلام كانوا أما غير متخصصين بعلم الاجتماع أو من الحاسدين وأعداء النجاح. حيث سمعنا كثيرا ومازلنا نسمع تلك الاتهامات غير المنطقية التي لا يقبلها أي إنسان واعي ومطلع على الفكر الاجتماعي ولو بمقدار محدود من أن الدكتور علي الوردي لم يكن لديه منهجية في دراسة المجتمع العراقي وانه كان يرمي بآرائه وأفكاره وأحكامه جزافا من غير أن يكون قد استقاها نتيجة لدراسات علمية سوسيولوجية، هذا

حقا غير منطقي وغير معقول ذلك إن الواقع الذي نحن بصدده يؤكد مدى قوة وفاعلية المنهجية العلمية لفكر الوردي والتي كانت سببا في أن يحقق كل هذا النجاح وتصل أرائه ومؤلفاته إلى أماكن بعيدة ويعاد طبع كتبة مرات عديدة في العراق والوطن العربي وفي بلدان غير عربية أيضا وبشكل منقطع النظير بالنسبة لبقية كتب علم الاجتماع الأخرى حيث لا يخفى حقيقة مستوى الإقبال المتدني نحو العلوم الإنسانية في العراق والمنطقة العربية من دراسة أو قراءة وخصوصا علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الإنسان، هذا فضلا عن إن الكثير من الظواهر التي رصدها الوردي والتحليلات الاجتماعية التي قدمها لنا قبل عقود من الزمن صارت الآن واضحة للعيان وغير مستترة خصوصا بعد التغير الذي حدث في المجتمع العراقي بعد ٢٠٠٣/٤/٩ وما جرى بعده من أحداث على الأصعدة السياسية والاقتصادية وخصوصا الاجتماعية.

لذا كان من المهم أن تقدم دراسة توضح طبيعة منهجية الوردي أو جانبا منها في الأقل ليس دفاعا عنه بل دفاعا عن الفكر الاجتماعي العراقي المتنور وحماية للقارئ من الوقوع في حالة التضليل ومن ثم النفور عن قراءة فكر الوردي وغيره من الأفكار الاجتماعية المشابهة وقد جاءت هذه الدراسة المتواضعة لتسلط الضوء على واحداً من أهم مناهج البحث الاجتماعي وهو المنهج التاريخي الذي كان واحد من المناهج العلمية التي كان يستعملها الوردي في دراسته للمجتمع العراقي وللظواهر الاجتماعية، بل كان الأكثر استخداما من قبله وذلك نتيجة لفهمه الخاص لمناهج البحث الاجتماعي وما يتلاءم مع طبيعة الدراسة وطبيعة المجتمع الذي يروم إجراء الدراسة حوله.

المنهج التاريخي:

يمكن تعريف **المنهج Method**: بأنه الخطوط العامة التي يتبعها الفكر في المجال العلمي، وعلى مستوى آخر، نفهم كلمة مناهج بالجمع باعتبارها

إشارة لبعض تقنيات التقصي الخاصة بالبحث.[١]

أما **التاريخ History:** فهو علم الوقائع والحوادث والاخبار، المحفوظة والمروية أو الموثقة. لكل مجتمع تاريخه الوقائعي، وكذلك الحال بالنسبة الى كل علم وأدب وفن وفلسفة. يقوم على البحث والنقد والتحليل والتقويم.[٢]

لذلك يعرف **المنهج التاريخي**[٣] **:Historical Method** بأنه استخلاص المبادئ عن طريق الماضي، وتحليل حقائق المشكلات البشرية والعوامل أو القوى التي أثرت في الحاضر وجعلته على ما هو عليه. فالمنهج التاريخي في ذلك ينظر إلى المعلومات التاريخية على أنها مركبات للقوى الاجتماعية، وتصف الظواهر الاجتماعية بأنها عمليات اجتماعية مركبة ومترابطة ومتشابكة. وهو بذلك يوضح ماهية الظاهرة المدروسة في عصورها المختلفة ويمكن الباحث من الوصول إلى استنتاجات وتعميمات عامة، وذلك باستخدام مجموعة من الوسائل والتقنيات يلجأ إليها الباحث بغية الوصول إلى حقيقة الظواهر الاجتماعية. فالمنهج التاريخي يفسر الظاهرات بدراسة ماضيها، كيف جاءت؟ وكيف وصلت إلى ما هي عليه؟ كنتيجة لعملية التطور التاريخي استنادا في ذلك على الوثائق والسجلات المؤكدة.[٤] وتنبع أهمية المنهج التاريخي من أن الحياة الاجتماعية متطورة ومتغيرة ومتجددة لا تعرف الجمود ولا التوقف، ويحتاج فهمها فهماً كلياً التعرُّف إلى طبيعة ما تحتضنه من أمور متنوعة ترافق مراحل نموها المختلفة. إن الظواهر التاريخية متشابهة، إلا أنها تحدث في قرائن تاريخية متباينة، ويمكن اكتشاف أسبابها وتعليلها عن طريق دراسة كل من هذه التطورات دراسة مفصلة، ولكن لن ينجح الباحث في ذلك إذا نظر إلى تلك الظواهر بطريقة تتخطى المراحل التاريخية بمجملها، ولابد للباحث الاجتماعي هنا من فهم الظاهرة الاجتماعية المدروسة ضمن

المنظور التي كانت سائدة فيه، لا أن يستخدم مفاهيم عصره لفهم ظاهرة تاريخية عابرة. يستخدم المنهج التاريخي في البحوث الاجتماعية بقصد الوصول إلى المبادئ والقوانين العامة التي تحكم الظواهر الاجتماعية في إطارها التاريخي. واعتماد الباحث الاجتماعي المنهج التاريخي في بحث ما لا يقتصر على الوقوف عند هذا الماضي فحسب، بل يرتبط بالقدر الذي يمكنه من تتبع نشأة العمليات الاجتماعية ونموها، ودراسة أثر ذلك، وتحديد الظروف التي أحاطت بها لمعرفة طبيعتها، وما تخضع له من قوانين ومؤثرات تقوم بدور مهم في نشأتها وتطورها،ففي ضوء الماضي يمكن فهم حاضر الشيء وتطوره في مراحل نموه المختلفة. ومن جهة أخرى فإن الماضي يتيح بلورة صورة ما يمكن أن يحمله المستقبل، ويذهب البعض إلى أبعد من ذلك فيقرر أن الحاضر ما هو إلا نتاج الماضي، إذ إن حياة أية جماعة وما يسود فيها من أنظمة اجتماعية مختلفة تتصل اتصالاً وثيقاً بماضي هذه الجماعة وتاريخها. وإن مما يدعو على استخدام المنهج التاريخي في بحث الظواهر الاجتماعية، طبيعة هذه الظواهر المميزة لها فمن طبيعتها أنها لا تعيش في عصر الجيل الواحد (كجيل الفرد الحاضر) بل تعيش في وجود الجماعة، الذي بدأ في الماضي ماراً بمرحلة الحاضر متجهاً نحو المستقبل،لذلك يكون من الضروري في دراسة هذه الظاهرات دراسة وجودها في ماضيه، إضافة على دراسة حاضره. وباختصار شديد، إن انتهاج المنهج التاريخي في علم الاجتماع طريقة علمية في البحث والاستقصاء تمكن الباحث الاجتماعي من دراسة منشأ الظاهرة، ومقارنة النشوء الأقدم بالحاضر، وبيان العوامل التي تقف وراء التبدل والتغير في سمات الظاهرة وأعراضها.

السيرة الوردية:

ولد علي الوردي في الكاظمية عام ١٩١٣ ونشأ وترعرع فيها وكان

مولعا منذ صباه بقراءة الكتب والمجلات وقد اضطر إلى ترك المدرسة ليعمل في دكان والده، ثم للعمل صانعا عند عطار المحلة، ولكنه طرد من العمل لأنه كان ينشغل بقراءة الكتب والمجلات ويترك الزبائن. ثم عاد إلى المدرسة وأكمل دراسته وأصبح معلما. كما غير زيه التقليدي عام ١٩٣٢ وأصبح افنديا. وفي عام ١٩٤٣ أرسلته الحكومة العراقية إلى بيروت للدراسة في الجامعة الأمريكية، كما حصل على شهادة الماجستير وكذلك الدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة تكساس الأميركية. وبعد عودته إلى العراق عمل في قسم الاجتماع في جامعة بغداد حتى تقاعده عام ١٩٧٠. وتوفى في بغداد في ١٣ تموز عام ١٩٩٥.

مـؤلفاتـه:

كتب الوردي ثمانية عشر كتابا وعشرات البحوث والمقالات. وكانت ذات أسلوب أدبي - نقدي ومضامين تنويرية جديدة وساخرة لم يألفها القارئ العراقي. وقد اتسمت بطابع علمي ومثلت مشروع الوردي لوضع نظرية اجتماعية حول طبيعة المجتمع العراقي وهي:

- خوارق اللاشعور أو أسرار الشخصية الناجحة ١٩٥٢.
- وعاظ السلاطين ١٩٥٤.
- مهزلة العقل البشري ١٩٥٥.
- أسطورة الأدب الرفيع ١٩٥٧.
- الأحلام بين العقيدة والعلم ١٩٥٩.
- منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته ١٩٦٢.
- دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ١٩٦٥.
- لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ستة أجزاء في ١٢ كتابا.١٩٦٩- ١٩٧٩
- شخصية الفرد العراقي:بحث في نفسية الشعب العراقي على ضوء

علم الاجتماع الحديث.

وهو في جميع ما ألف وكتب لم يتملق ولم يداهن وكان وفيا للمنهج الذي اختطه لنفسه. ابتدأ في دراسة طبيعة المجتمع العراقي حسب نظرية استقاها من ثلاث مصادر الأولى بعالم الاجتماع الأمريكي مكيفر، والثانية بالعالم العربي المشهور " ابن خلدون" والثالثة بعالم الاجتماع الأمريكي اوجبرن.

ترجمت بعض أعماله إلى عدد من اللغات منها الانكليزية والفارسية والتركية والألمانية.

تأثره بابن خلدون:

ومن المعروف عن الدكتور علي الوردي تأثره بابن خلدون حيث كثيرا ما كان يعلن عن إعجابه بالأفكار السباقة التي جاء بها ابن خلدون في مقدمته ومن أمثلة ذلك ما ذكره في كتابه منطق ابن خلدون :

يقول ابن خلدون ... انه كان قصده ان يبحث في طبيعة الحياة الاجتماعية لكي يكتشف القوانين التي تسيطر عليها سواء في ذلك أكانت تلك القوانين ذميمة أو حميدة.ثم يعلق هو فيقول: لا يجوز أن نستهن بهذا القول الذي جاء به ابن خلدون، فلو ان احد المفكرين في عصرنا جاء به لما وجدنا فيه كبير شان، إذ هو من الأسس التي تقوم عليها العلوم الاجتماعية الحديثة، والمعروف عن هذه العلوم أنها تبتعد عن التقييم الأخلاقي في أبحاثها الاجتماعية، إذ هي تدرس الواقع كما هو بغض النظر عن كونه محمودا أو غير محمود. اما زمان ابن خلدون فقد كانت الأبحاث الاجتماعية تجري على الضد من ذلك.(٥)

بينما يتحدث ابن خلدون في مقدمته عن منهجه التاريخي في دراسة اثر المحيط الاجتماعي في تكوين شخصية الإنسان حيث يقول:

(إن الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه فالذي آلفه في الأحوال صار خلقا وملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة واعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيرا صحيحا والله يخلق ما يشاء)[٦].

ويتضح تأثير ابن خلدون ونظريته عن صراع البداوة والحضارة في مناقشته لحالة الصراع في المجتمع العراقي بين قيم الحضارة والبداوة تلك القيم التي أثرت كثيرا في شخصية الفرد العراقي وطبعته بازدواج الشخصية فتارة يكرم الضيف وأخرى ينهب وتارة يدعو إلى الخير وأخرى يقتل ويسرق. أمثلة بسيطة وشعبية ليعزز منهجه التاريخي في البحث وحينما عاب عليه البعض خلو كتبه من الإحصاء حسب الطريقة الأمريكية التي درس وتتلمذ في جامعاتها ردهم قائلا إن المجتمع العراقي غير المجتمع الأمريكي فما زال الخوف قائما من الأفندي الذي يحمل قلما ودفترا وتساءل كيف أوجه سؤال لمجتمع تنخر الأمية والتقاليد البالية فيه لذلك اثر اتخاذ المنهج الخاص به.

وهذا يظهر تأثر الوردي بشكل واضح بأطروحات ابن خلدون وبأسلوبه البحثي وكان ذلك واحد من أهم الأسباب التي دفعته إلى انتهاج المنهج التاريخي في اغلب دراساته الاجتماعية، وقد وكان ابن خلدون موضوع أطروحته للدكتوراه.

المنهج التاريخي عند الوردي:

كان الوردي كثيرا ما يستخدم المنهج التاريخي في مختلف مؤلفاته ومقالاته وخصوصا كتاب لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث حيث انه اكبر كتبه وأهمها فضلا عن كتبه الأخرى التي سوف نتابع استخدامه للمنهج التاريخي فيها، ومن اجل توضيح طريقته الفريدة في دراسة الظواهر الاجتماعية حيث كان يصرح بذلك في مناسبات عدة منها قوله"**عند دراستي للمجتمع العراقي ..أدركت أني لا استطيع أن افهم المجتمع في وضعه الراهن**

ما لم افهم الأحداث التي مرت به في عهوده الماضية. فكل حدث من تلك الأحداث لابد أن يكون له شيء من التأثير قليلاً أو كثيراً في سلوك الناس حاليا وفي تفكيرهم."[٧]

وفي هذا السياق يذكر الدكتور علي حسين الجابري وهو من المعاصرين للوردي ما نصه (لكن الوردي وهو يتدرج في تقديم مؤلفاته كان يتخلص من نواقص البحث العلمي أو منهجياته ... فحين درس في كتابه طبيعة المجتمع العراقي عرض لنا واقع العراق في العهد العثماني على الطريقة الوصفية مشيرا إلى الحدث والوضع الاجتماعي من غير تحليل وبيان لطبيعة الأسباب الكامنة خلفه! ولعله تنبه لهذا الخلل بعد حين لذلك التفت في كتابه لمحات اجتماعية إلى ما تنطوي عليه الأحداث من دلالة فكرية واجتماعية).[٨]

بينما يذكر الوردي نفسه في مقدمة القسم الأول من الجزء الخامس من كتابه الشهير لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ما نصه:

إن (المنهج الذي أسير عليه في هذا الجزء هو نفسه الذي سرت عليه في الأجزاء السابقة، والذي سوف أسير عليه في الأجزاء اللاحقة، هو ذكر الأحداث كما وقعت من غير تحيز لها، أو عليها، مع الأخذ بنظر الاعتبار طبيعة المجتمع الذي وقعت فيه تلك الأحداث.[٩])

ويبدو استخدام الوردي للمنهج التاريخي في البحث والتحليل الاجتماعي بصور متعددة ومختلفة منها ما يلي:

١. الاستناد على الوثائق والسجلات المؤكدة
٢. تحليل حقائق المشكلات البشرية والعوامل أو القوى المؤثرة في الحاضر
٣. استخلاص المبادئ عن طريق الماضي
٤. الوصول إلى استنتاجات وتعميمات عامة

١ـ الاستناد على الوثائق والسجلات المؤكدة

كان الوردي يستند على المصادر التاريخية المؤكدة في جمع المعلومات عن الظواهر الاجتماعية مثل كتب التاريخ لمؤرخين كبار ومعتبرين أمثال (كتاب تاريخ العراق بين احتلالين للمؤلف عباس العزاوي) وغيره الكثير من الكتب التي أشار إليها في مؤلفاته إضافة إلى التراث الأدبي للمجتمع العربي والعراقي، اذ يذكر الوردي في كتاب أسطورة الأدب الرفيع كيف كان ستشف تصوراته عن العناصر الثقافية للمجتمع البدوي في العصر الجاهلي حيث يقول:

(كنت قبل سنوات أحاضر في احد صفوف كلية الآداب في موضوع المجتمع البدوي وتاريخه، وكان أعظم مرجع لي في هذا الموضوع هو الشعر الجاهلي، فكنت استشف من وراء سطوره ما كان يسود المجتمع البدوي القديم من معايير أخلاقية ودينية واجتماعية. وقد اجتمعت عندي من وراء ذلك معلومات تاريخية لا باس بها.[١٠])

فضلا عن استخدام الرسائل وغيرها من اشكال الوثائق، وفي مثال أخر يشير في لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث إلى رسالة (المس بيل)[١١] والتي تتضمن أشارة إلى أحدى الظواهر الاجتماعية ليستند عليها كوثيقة ثم يذهب إلى دراسة تلك الظاهرة الحقيقة ان استعراض جميع الحالات التي استخدم فيها الوردي الوثائق والسجلات في دراساته الاجتماعية تحتاج إلى عشرات الصفحات مما لا يتسع لها هذا المقام لذا فقد تمت الإشارة إلى مثال واحد عن كل صيغة.

٢ـ تحليل حقائق المشكلات البشرية والعوامل أو القوى المؤثرة في الحاضر

ومن موارد ذلك يصف الوردي طبيعة النزاع الدائر بين الدولتين العثمانية والفارسية على ارض العراق واثر ذلك النزاع في ظهور واستفحال

الصراع الطائفي بين العراقيين حين يذكر إن الصراع قد نشأ من كون الدولة الإيرانية اتخذت التشيع شعارا لها بينما اتخذت الدولة العثمانية شعار التسنن، فادى ذلك إلى استفحال الصراع الطائفي في العراق إلى درجة لا تطاق..وكان هذا الصراع بلغ أوجه عندما حدث التنازع على العراق بين الدولتين حيث صار أهل العراق لا يفهمون من شؤون حياتهم العامة سوى أخبار هذه الدولة أو تلك، وكل فريق منهم يدعو الله أن ينصر إحداهما ويخذل الأخرى.(١٢)

استطاع الوردي من خلال المتابعة التاريخية لحالة الصراع بين الدولتين ومن ثم تأثير ذلك الصراع على الوضع في العراق اكتشاف كيف أنهما استغلتا حالة التعصب الديني والمذهبي الموجودة في المجتمع العراقي في تأجيج الخلاف خدمة لمصالح كل منهما وربما يشكك شخص ما بمثل هذا التحليل في مرحلة قبل ٢٠٠٣/٤/٩ ، إلا إن الواقع السياسي والاجتماعي الذي أفرزته تتابع الأحداث في مرحلة بعد ٢٠٠٣/٤/٩ يؤكد لكل متابع سلامة واقعية هذا التحليل الاجتماعي التاريخي.

الحقيقة أن الوردي كان شديد الملاحظة لظاهرة النزاع الفكري والعقائدي في المجتمع العراقي وقد استفاد كثيرا من متابعة هذه الظاهرة في مراحل تاريخية عديدة واستطاع أن يقدم لنا تحليلات غاية في الواقعية لهذه الظواهر وربطها بظواهر اجتماعية معاصره كانت من وجهة نظره تطورا لحالات النزاع السابقة حيث يذكر في كتابه لمحات اجتماعية:

(أن من مزايا قتال السيف انه ينتهي عادة إلى نتيجة حاسمة حيث تتم فيه غلبة احد الفريقين على الأخر وليس للفريق المغلوب سوى الاعتراف بهزيمته والخضوع لشروط الغالب. أما قتال القلم فهو لا ينتهي إلى مثل هذه النتيجة إذ هو يظل سجالا دون أن يعترف احد الفريقين بأنه مغلوب ويستمر الحال على ذلك إلى مالا نهاية ...ان الجدل اللانهائي الذي اعتاد العراقيون

عليه من جراء ذلك جعل بينهم وبين واقع الحياة حجابا ومن المؤسف ان هذا النمط من الجدال لا يزال منتشرا في أوساط الكثيرين منهم حتى هذه الساعة - لا فرق بين أولي الثقافة الحديثة منهم وأولي الثقافة القديمة- وربما كان هذا من جملة العوامل التي أدت إلى استفحال العنف في الجدل السياسي لدى أهل العراق.(١٣)

بينما يقدم لنا في كتاب دراسة في طبيعة المجتمع العراقي تحليلا عن الفرق بين سلوك العرب والمغول في الفتوح وهو الذي يسميه التعليل الديني، فيقول (بان الدين الإسلامي الذي حمله العرب عند فتوحهم هو الذي جعلهم اقل قسوة وأكثر مروءة من المغول.(١٤))

٣ـ استخلاص المبادئ عن طريق الماضي

وفي واحدة من تحليلاته الاجتماعية الرائعة يقدم لنا الوردي في كتابه الشهير وعاظ السلاطين فكرته عن طبيعة الأسلوب الوعظي وأثره على الناس من خلال ما ذكر في الفقرة التالية (دأب الواعظون على أسلوب هذا لمئات السنين. والناس منهمكون في أعمالهم التي اعتادوا عليها لا يتأثرون بالموعظة إلا حين تلقى عليهم، فنراهم يتباكون في مجالس الوعظ ثم يخرجون كما دخلوا لئاما.(١٥))

أن نقد الوردي لظواهر اجتماعية سائدة في المجتمع العراقي كان منطلقا من الكشف عن حالات مرضية وتشخيص عللها. وهذه هي أولى مهام الباحث الاجتماعي وقد كانت معظمها تمثل موضوعات حساسة جدا لا يجترأ أي كاتب أو ناقد أن يتناولها وينقدها إلا أذا كان يحتل مكانة فكرية أو علمية متميزة في المجتمع بسبب امتلاكه الأفكار النيرة وله القدرة على الرؤية من خارج المجتمع إلى أمراضه ومشكلاته الاجتماعية لأن طرح ظواهر ملتصقة بحياة الناس اليومية لمجتمع تقليدي تمتد جذوره إلى ماض سحيق، ويتم طرحها

بشكل جماهيري من خلال الصحف والمجلات اليومية، يحتاج إلى جرأة قوية لتحميل تبعاتها السلبية التي قد تصل النبذ الاجتماعي أو الاتهامات الخطيرة.

كان تشخيص الوردي ونقده للمشاكل الاجتماعية يتسم بالشمولية، حيث يأخذ شرائح اجتماعية ممتدة بشكل واسع في المجتمع العراقي ونظرته النقدية لبعض المعتقدات وطرائق العيش والسنن الاجتماعية ثاقبة وغائرة في أعماق تراث المجتمع العراقي، وان أسلوبه السوسيولوجي ومنهجه التاريخي يتصف بالشمول.

وفي صفحات لاحقة من كتابه لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث يقدم الوردي لقرائه قاعدة اجتماعية جديدة تفسر الكثير من حالات الصراع الاجتماعي بين جماعات مختلفة كل منها تعتقد أن الحق معها والأخر هو الباطل المحض ونتيجة لذلك فإنها لا تتمكن من التوصل إلى قناعة بمبدأ الأخر وان كان صحيحا لكي ينشب الصراع ويستمر ويميز الصراع بين الحيوانات الذي يعتمد فقط على مبدأ القوة الجسدية عن الصراع عند المجتمعات البشرية حيث يقوم على استخدم الحيل العقلية لإقناع الآخرين بصدق القضية التي يدافع دونها إلى أن يقتنع هو أيضا بأنه صاحب قضية حقيقية تستحق القتال من اجلها.[١٦]

وقد توصل إلى هذه القاعدة الاجتماعية من خلال البحث التاريخي وتحليل الظواهر الاجتماعية المصاحبة لحالات النزاع بين الجماعات الاجتماعية المختلفة.

ويذكر في كتاب أسطورة الأدب الرفيع ما أن الباحث الاجتماعي حين يدرس حادثة تاريخية مثلا، لا يهمه كيف توصل المؤرخون إلى تحقيق تلك الحادثة أو استقصاء القرائن والدلائل فيها. ولكنه يأتي أخيرا فيأخذ النتيجة التي توصلوا إليها ويستعين بها في دراسة المجتمع البشري بوجه عام.[١٧]

ولم يكن الوردي في دراسته عن المجتمع العراقي سوى باحث عن القوانين التي صيرت المجتمع العراقي مختلفا، كان يبحث كثيرا عن أسباب الجدل العراقي حتى لقب العراق ببلد الشقاق والنفاق بالرغم من أنها صفات غير أصيلة في المجتمع العراقي ومن العوامل المهمة لهذا الصراع ميل أهل العراق إلى "الجدل"، الذي طبع التراث الفكري في العراق "بطابع مثالي" بعيدا عن الواقع الملموس فعلا، ولهذا ظهرت هوة بين التفكير وبين الممارسة العملية وقد علل ذلك بحالة الصراع التي شهد المجتمع العراقي لفترة طويلة بين الدولتين الفارسية والعثمانية وما خلفه من حالة الصراع من ثم الجدل الطائفي.

وفي محاولته لتفسير بعض الظواهر الاجتماعية المتناقضة التي كانت منتشرة في العهد العثماني والتي مازلت رواسبها موجودة حتى الآن في المجتمع العراقي تحدث عن الفهم الخاطئ لمبدأ الشفاعة في الدين الإسلامي حيث كان يعلل ذلك" بطبيعة الحكم الذي اعتاد الناس عليه في العصور القديمة، فهم قد اعتادوا أن يروا الشخص المقرب من السلطان قادرا أن ينقذ أي إنسان من حبل المشنقة أو يجعله يحظى بالجوائز والمال الوفير، وقد انعكست هذه النظرة على عقيدتهم الدينية فصاروا يعتقدون أن الشفاعة لها أهميتها في الآخرة مثل أهميتها عند السلاطين في الدنيا. وهنا يؤكد على إن هذا التحليل التاريخي يساعدنا على تفسير الكثير من الظواهر الاجتماعية المتناقضة التي كان العهد العثماني يزخر بها من حيث اهتمام الناس-حكومة وشعبا- بتعمير المساجد والمراقد المقدسة، وشدة العناية بالطقوس والمظاهر الدينية، في الوقت الذي كان فيه الظلم والنهب والاعتداء شائعا بين الناس- فالحكومة تظلم الناس والناس يظلمون بعضهم بعضا، ولكن الجميع واثقون بأنهم سيدخلون الجنة غدا بواسطة الشفعاء الكرام."[١٨]

والحقيقة إن الوردي كان نافذ البصيرة في هذا التحليل ذلك إن أي باحث موضوعي يمكنه ملاحظة هذه الحالة موجودة على نطاق واسع بين أبناء المجتمع العراقي وحتى يومنا هذا حيث نسمع ونشهد يوميا عن حالات الفساد الإداري المستشري بين المسئولين والموظفين في مؤسسات الدولة والذين أما أن يكونوا قد ضمنوا وجود شفعاء لهم يخلصوهم من المسالة في دار الدنيا كأقرباء ومعارفهم من المسئولين أو أنهم سوف يتجهون لشفعاء يشعون لهم من حساب الآخرة من خلال التبرع بالأموال التي جنوها من السحت والسرقة والحرام في خدمة أولياء الله اعتقادا منهم بأنهم سوف يشفعون لهم ويخلصونهم مما جنت أيديهم ولكن هيهات لهم.ونلاحظ كثيرا في الأسواق الشعبية وخلال التعامل مع العديد من المشتغلين في الأعمال الحرفية والأعمال الحرة سوء الأداء وعدم الإخلاص والغش والميل إلى الاستغلال، من جانب آخر نلاحظ ان مواسم الزيارات المختلفة تشهد دائما حضورا مليونيا من جانب الخدمات ومن جانب الزوار والسؤال المطروح هو(من هم الذين يحطمون الأرقام القياسية في الفساد الإداري على المستوى العالمي اذا كان كل هؤلاء الناس ملتزمون حقا بمنهج وحب أهل بيت النبي (ص) وبتعاليم الإسلام!!؟).

وقد تنبه الوردي إلى هذه الظواهر وتابع جذورها التاريخية فوجد أنها ترجع إلى القيم البدوية وعلى الخصوص قيمة التغالب عند البدو حيث يذكر ما نصه (حين ندرس شخصية صاحب الحرفة نجده اقرب إلى قيم البداوة منه القيم الحضارة. فهو يود أن يغلب الزبون بدلا من أن يداريه ويرضيه على طريقة أهل الحضارة، ولا يكاد الزبون يغفل عنه حتى يسرع إلى غشه. إن نزعة ((الغزو)) ((والفرهود)) أقوى عنده من نزعة العمل والإنتاج فهو يهتم بالربح الذي يأتيه عن طريق الغلبة أكثر من اهتمامه بالربح الأجل الذي يأتيه من حسن السمعة.[١٩])

وفي سياق متصل لاحظ الوردي شكل آخر من أشكال التناقض

السائد في سلوكيات عدد غير قليل من العراقيين في وقته وما زالت موجودة عند البعض في الحاضر وربط ذلك بسلوكيات كانت شائعة في مراحل تاريخية سابقة وكما ورد في النص التالي:

(إن كثيرا من الأشخاص في العهد العثماني كانت لديهم رغبة نفسية عميقة في أكل الديون التي عليهم، أو المماطلة فيها على الأقل، مع أنهم يملكون القدرة على أدائها، وهم قد اعتادوا على ذلك بحيث لا يجدون فيها عيبا...الملاحظ إن شيئا من هذه العادة لا يزال باقيا لدى بعض الناس حتى يومنا هذا فالفرد منهم قد يكون متدينا كثير العبادة والتهجد، أو يكون ذا ثروة لا باس بها، ولكنه يحب أن يأكل مثل هذه الديون الصغيرة بينما هو ينفق أضعافها على ولائمه ومظاهر سخائه في شتى المناسبات.[٢٠])

وفي تحليله لكيفية ظهور الحركة الوهابية وسرعة انتشارها كان قد اتبع أسلوب ابن خلدون في التأكيد على اثر الخصال البدوية التي تدعوا الوحشية والخشونة والتغالب والعصبية القبيلة والتي تحولت بعد ذلك إلى عصبية مذهبية وقد ربط بين هذه الخصال الُمتجذّرة بين أهل الصحراء ومبدأ الجهاد الذي رسخه محمد عبد الوهاب في أذهانهم وبذلك وضع يده على النقطة الحساسة في الطبيعة البدوية وهي الغزو والغنيمة، فصارت القبائل تتهافت على الانضمام إلى الدعوة الجديدة، وكان كل نصر تناله الدعوة في غزوتها يزيد من عدد أتباعها ومن حماسهم. لذا نلاحظ انتشار هذه الدعوة في المناطق الصحراوية أو المناطق الجبلية أي أنها دائما تكون منتشرة بين صفوف البدو والمجتمعات الوحشية التي تعيش بمنطق القوة والتغالب وبعد ان بدأت منطقة الجزيرة العربية بالتمدن نلاحظ ان هذه الدعوة بدأت تنحسر فيها بينما صارت تظهر في مناطق جديدة يمكنها أن تنجح بها مثل افغانستان.

وفي تحليله لأحدى الظواهر الاجتماعية وهي الميل إلى معاداة الحكومة

والخروج عن النظام والقانون فأنه يرجعها إلى العهد العثماني حيث كانت الحكومة عدوة الشعب وكان الناس يتفاخرون بمخالفة والقوانين والخروج عن النظام نكاية بها ويعدون من مظاهر المروءة والشجاعة عدم الانصياع للدولة وإيواء الهاربين من العدالة بينما يحتقرون من يتعاون معها ويعتبرونه جاسوسا. وربما مازالت مثل هذه السلوكيات موجودة في المجتمع العراقي لكن على نحو آخر من قبيل اللامبالاة بالمصلحة الوطنية وعد الاكتراث بالمال العام والفجوة الكبيرة بين المواطنين والمسئولين السياسيين والإداريين أو حتى النواب الذين يفترض ان يكونوا هم ممثلين للمواطنين، وذلك لأن الحكومات التي توالت على حكم العراق بعد الدولة العثمانية لم تكن تختلف كثيرا عنها من حيث عدم الاكتراث بالمواطنين واحتياجاتهم وهمومهم بل وظلمهم والجور عليهم. كما انه بين في موارد مختلفة طبيعة المنهج التاريخي في دراسة الظواهر الاجتماعية وما هي قواعد استخدام هذا المنهج ومثال ذلك:

أما الباحث فالمفروض فيه أن يدرس أحداث التاريخ دون أن تكون له أية فكرة مسبقة تحدد موقفه منها، وإذا كانت لديه مثل هذه الفكرة تحول من كونه باحثا إلى كونه داعية.[٢١]

وهذا الكلام يؤكد انتهاج الوردي للمنهج التاريخي في دراسة المجتمع العراقي.

وفي مورد آخر من نفس الكتاب يذكر" ونحن حين ندرس التاريخ نريد أن نجعله وسيلة لتثقيف الناس وسبيلا لمساعدتهم على حل ما يعانونه من مشكلات راهنة.[٢٢]

٤ـ الوصول إلى استنتاجات وتعميمات عامة

عند مروره على موضوع الصراع بين القديم والجديد فأنه يقدم للقارئ تحليلا تاريخا رائعا لطبيعة هذه الظاهرة حيث يذكر أنها ظاهرة

اجتماعية نلاحظها في كل زمان ومكان أنما هي تختلف شدة وضعفا حسب اختلاف الظروف ... من طبيعة السواد الأعظم من الناس في كل مجتمع أنهم يميلون إلى المحافظة على تراثهم القديم الذي وجدوا عليه أبائهم فهم لا يحبون تبديله،أذا جاءهم ما يخالفه نهضوا جميعا لمقاومته لا يفرقون بين النافع والضار منه فكل جديد مستنكر في نظرهم وليس للمنطق فيه مجال. وهذا أمر نلاحظه في كل الشعوب حتى تلك التي نعدها ألان ((راقية))[٢٣] ثم يعزز فكرته بفكرة المقاربة بين طبيعة المجتمع البشري وجسم الكائن حي في مقاومة الجديد بدافع المحافظة على سلامة الكيان الأصلي وحمايته من خطر القادم الجديد. إن مقاومة الجديد في المجتمع يمكن تشبيهه بطبيعة الرفض الموجودة في البدن الحي إذ هي ترفض كل جسم غريب يدخل فيه سواء أكان قلبا مزروعا ينفعه أو جرثومتا تضره، وحين تضعف طبيعة الرفض هذه في البدن، فتقبل ما هو نافع كالقلب المزروع مثلا، تضعف في الوقت نفسه مقاومة البدن لجراثيم الأمراض،ولهذا نجد البدن قد استفاد من وجود القلب الجديد فيه غير انه من الناحية الأخرى أصبح عرضة لتغلب الأمراض عليه [٢٤].

ورب ساءل يسأل عن السبيل الأسلم في التعامل مع طبيعة القيم الجديدة او الدخيلة على ثقافة المجتمع وهل يجب أن نقف منها موقف الرافض المقاوم ام نقبل بشكل مباشر التقدم والتطور والتجديد؟

ولكن الوردي قدم لنا الإجابة على هذا السؤال حيث أكد على أن المجتمع البشري أذا مال نحو رفض ومقاومة كل القيم الجديدة بحجة أنها (دخيلة) فأنه سوف يكون معرض للجمود بينما أذا صار المجتمع يتقبل كل شيء جديد ووافد فانه قد يتعرض إلى خطر التفكك ، وان المجتمع الأمثل هو الذي تتوازن فيه قو المحافظة والتجديد فلا تطغى أحداهما على الأخرى.

وفي مورد آخر يقدم الوردي في الجزء الرابع من اللمحات قاعدة

اجتماعية مهمة عن طبيعة فهم الأعم الأغلب من الناس للدين حيث يذكر ما نصه أن الإنسان بوجه عام لا يفهم من الدين سوى الجانب الذي ينتفع منه أو يتصور انه ينتفع منه، فهو لا يهتم إلا بالأمور الاعتقادية والتعبدية من الدين لأنها تعطيه السلوى وتسبغ عليه الطمأنينة تجاه أخطار الحياة ومستقبلها الغامض، أما الجانب الأخلاقي من الدين وهو الجانب الذي يخص العلاقات مع الناس بعضهم ببعض والتضحية في سبيل الغير فالإنسان لا يهتم به الا في نطاق ما يلائم مصلحته أو يرفع مكانته بين الناس.[٢٥]

ولتأكيد هذه القاعدة فأنه يبين بأنه توصل إليها من خلال استخدام المنهج التاريخي في دراسة الظواهر الاجتماعية حيث يقول (وقد خبرنا البشر منذ آلاف السنين فوجدناهم يهتمون بجزاء الدنيا أكثر من جزاء الآخرة، اما الذين يشذون في سلوكهم عن ذلك فهم قليلون جدا، وهولاء لا يمثلون القاعدة العامة بل يمثلون الاستثناء منها، ولكل قاعدة شذوذ كما لا يخفى.[٢٦])

وقد أفصح عن منهجه التاريخي بشكل مباشر في كتاب مهزلة العقل البشري حيث ذكر (إن أبطال التاريخ لا أهمية لهم ألا من حيث مبادئهم الاجتماعية التي كانوا يسعون من ورائها. ونحن حين ندرس التاريخ نريد أن نستشف منه تنازع المبادئ فيه، ونتخذ الأبطال رموزا لتلك المبادئ.[٢٧])

من مجمل ما تم ذكره من أمثلة يتضح أن الدكتور علي الوردي كان يستخدم المنهج التاريخي في أغلب مؤلفاته وبحوثه الاجتماعية وان استخدامه لهذا المنهج أتاح له أن يتوصل لتلك الاستنتاجات والتحليلات وأنه كان كغيره من أبناء جنسه يصيب ويخطأ، ولكنه نال شرف المحاولة.

الملخص:

دراسة اجتماعية نظرية بأسلوب تحليل المضمون لأهم مؤلفات

الدكتور علي الوردي إضافة إلى مرجعة أراء بعض من كتب عنه في محاولة للكشف عن واحد من أهم مناهج البحث في علم الاجتماع وهو المنهج التاريخي وطريقة استخدام الوردي لهذا المنهج في دراسته لمجتمع العراقي وتحليل الظواهر الاجتماعية من خلال متابعة تأريخها لذا فأن هذه الدراسة تبدأ بمقدمة تمهيدية توضح أهميتها والهدف منها والمشكلة التي تحاول معالجتها وثم توضيحات لمفاهيم الدراسة الأساسية و المنهج والتاريخ والمنهج التاريخي ثمر استعراض سريع للسيرة الذاتية والعلمية للدكتور علي الوردي، ثم مناقشة طريقة استخدمه للمنهج التاريخي في البحث الاجتماعي.

Abstract

A social theoretical study in an analytical style of the content of the most important of Dr. Ali Al- Wardi's works, in addition to the opinion of some of those who wrote about him in an attempt to reveal one of the most significant research methods of sociology which is the historical method and the way he applied this method in study of the Iraqi society and the analysis of the social phenomenon through following up this history. Therefore, this study starts with an introduction revealing its importance and its purpose as well as the problem that it tackles. Then it dealt with revealing the concepts of the basic studies, the history, the method and the historical method. After which, a rapid review of the bibliography of Dr. Ali Al- Wardi. Finally, the researcher discussed the way he applied the historical method in the social research.

هوامش البحث

(١) دورتيه، جان فرنسوا، ت.د.جورج كتورة، معجم العلوم الإنسانية، بيروت، كلمة ومجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،٢٠٠٩،ص١٠٢١-١٠٢٢.

٢ خليل، أحمد خليل، معجم المصطلحات الاجتماعية، بيروت، دار الفكر اللبناني،١٩٩٥، ص٩٩.

(٣) وتجدر الإشارة هنا إلى بيان الاختلاف بين المنهج التاريخي ومبدأ التاريخانية Historicism والذي يعني به كارل بوبر البحث عن قوانين التغير الاجتماعي، والطموح إلى اكتشاف قوانين التاريخ..أي هي معتقد أو رؤية، تقول ان التغير الاجتماعي والتطور التاريخي خاضعان لقوانين تعاقب، تمد التاريخ بوجهة سير. حيث يعتقد بعض المفكرين أن ((التاريخ)) موجود حقيقي حي متحرك يتمتع بجسم وروح وارادة ورغبة وعزم واسلوب وحركة ومحرك ومبدأ للحركة ومسير ومقصد وهدف وقانون ونظام.

(٤) الغامري، محمد حسن، المناهج الانثروبولوجية، المركز العربي للنشر والتوزيع، الإسكندرية، بلا، ص٢٢.

(٥) الوردي، د.علي، منطق ابن خلدون، ط٢، دار كوفان للنشر، بيروت، ١٩٩٤، ص١٨-١٩.

(٦) ابن خلدون، المقدمة، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨، ص٨٦.

(٧) الوردي، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، مج١، ج١، ط مطبعة ستار، قم، ٢٠٠٥، ص٥.

(٨) الجابري، علي حسين، علي الوردي سيرته.فلسفته. مصادره، دمشق، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٩، ص٢٩.

(٩) علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، مج٣، ج٥،ق١، ط١ ، ص٥.

(١٠) الوردي، علي، أسطورة الأدب الرفيع، دار كوفان، ط٢، بيروت، ١٩٩٤، ص١٠١.

(١١) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، مج٢، ج٤،ص٤٢٨.

(١٢) المصدر السابق،مج١،ج١، ص١٤-١٥.

(١٣) المصدر نفسه، ص١٥١-١٥٢.

(١٤) الوردي، علي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، مطبعة ثامن الحجج، ط١، قم، ٢٠٠٦، ص٥٠.

(١٥) الوردي، علي، وعاظ السلاطين، دار كوفان، ط٢، بيروت، ١٩٩٥، ص٦.

(١٦) انظر،الوردي لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث،مج١، ج١،ص٤٧٦.

(١٧) الوردي، علي، أسطورة الأدب الرفيع، مصدر سابق، ص٥٠.

(١٨) الوردي،لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث،مج١، ج١، ص١٦.

(١٩) المصدر نفسه، ص٣١١.

(٢٠) المصدر السابق، مج٢،ج٤،ص٢٥٤-٢٥٥.

(٢١) الوردي، المصدر السابق، مج٢، ج٤،ص٤٧٧.
(٢٢) الوردي، علي، مهزلة العقل البشري، منشورات ثامن الحجج، ط١، قم، ٢٠٠٦، ص٥٤.
(٢٣) أنظر، الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث،مج١، ج٢،ص٥٩.
(٢٤) أنظر، الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٢،ص٦٠.
(٢٥) الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، مج٢، ج٤،ص٤٦٤-٤٦٥.
(٢٦) الوردي، المصدر نفسه،ص٤٦٥.
(٢٧) ، الوردي، علي، مهزلة العقل البشري، مصدر سابق، ص٤٩.

مصادرالبحث

١. الجابري، علي حسين، علي الوردي سيرته.فلسفته. مصادره، دمشق، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٩.
٢. علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، مج٣، ج٥،ق١، ط١، مطبعة ستار، قم، ٢٠٠٥.
٣. الوردي، علي، أسطورة الأدب الرفيع، دار كوفان، ط٢، بيروت، ١٩٩٤.
٤. دورتيه، جان فرنسوا، ت.د.جورج كتورة، معجم العلوم الإنسانية، بيروت، كلمة ومجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،٢٠٠٩.
٥. خليل، أحمد خليل، معجم المصطلحات الاجتماعية، بيروت، دار الفكر اللبناني،١٩٩٥.
٦. الغامري، محمد حسن، المناهج الانثروبولوجية، المركز العربي للنشر والتوزيع، الإسكندرية، بلا.
٧. اليزدي، محمد تقي مصباح، النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، ت. محمد عبد المنعم الخاقاني، منشورات دار الروضة، ط١، بيروت، ١٩٩٦.
٨. الوردي، د.علي، منطق ابن خلدون، ط٢، دار كوفان للنشر، بيروت، ١٩٩٤.
٩. ابن خلدون، المقدمة، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨.
١٠. الوردي، علي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، مطبعة ثامن الحجج، ط١، قم، ٢٠٠٦.
١١. الوردي، علي، مهزلة العقل البشري، منشورات ثامن الحجج، ط١، قم، ٢٠٠٦.
١٢. الوردي، علي، وعاظ السلاطين، دار كوفان، ط٢، بيروت، ١٩٩٥.